فمن ديدن الملوك وما عليه أوضاع أمرهم ورسومهم أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطنون
أنفسهم على إنجازها على أن يقولوا عسى ولعل ونحوهما من الكلمات أو يخيلوا إخالة أو يظهر
منهم بالرمزة أو الابتسامة أو النظرة الحلوة فإذا عثر على شيء من ذلك منهم لم يبق للطالب
ما عنده شك في النجاح والفوز بالمطلوب فعلى مثله ورد كلام مالك الملك ذي العزة
والكبرياء أو يجيء على طريق الإطماع دون التحقيق لئلا يتكل العباد كقوله يا أيها الذين آمنوا
توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم فإن قلت فلعل التي في الآية
ما معناها وموقعها قلت ليست مما ذكرناه في شيء لأن قوله خلقكم لعلكم تتقون لا يجوز
أن يحمل على رجاء الله تقواهم لأن الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة وحمله على أن يخلقهم
راجين للتقوى ليس بسديد أيضا ولكن لعل في الآية واقعة موقع المجاز لا الحقيقة لأن
الله عز وجل خلق عباده ليتعبدهم بالتكليف وركب فيهم العقول والشهوات وأزاح العلة
في أقدارهم وتمكينهم وهداهم النجدين ووضع في أيديهم زمام الاختيار وأراد منهم الخير
والتقوى فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا لترجح أمرهم وهم مختارون بين الطاعة والعصيان
كما ترجحت حال المرتجي بين أن يفعل وأن لا يفعل ومصداقه قوله عز وجل ليبلوكم أيكم
أحسن عملا وإنما يبلو ويختبر من تخفى عليه العواقب ولكن شبه بالاختبار بناء أمرهم على الاختيار
فإن قلت كما خلق المخاطبين لعلهم يتقون فكذلك خلق الذين من قبلهم لذلك فلم
قصره عليهم دون من قبلهم قلت لم يقصره عليهم ولكن غلب المخاطبين على الغائبين
في اللفظ والمعنى على إرادتهم جميعا فإن قلت فهلا قيل تعبدون لأجل اعبدوا أو اتقوا لمكان
تتقون ليتجاوب طرفا النظم قلت ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدي ذلك إلى
تنافر النظم وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده فإذا قال اعبدوا ربكم الذي خلقكم
للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث على العبادة وأشد إلزاما لها وأثبت لها في
النفوس ونحوه أن تقول لعبدك احمل خريطة الكتب فما ملكتك يميني إلا لجر الأثقال ولو قلت
لحمل خرائط الكتب لم يقع من نفسه ذلك الموقع الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء

وانزل

وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون
عدد سبحانه من موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له خلقهم أحياء قادرين أولا لأنه سابقة
أصول النعم ومقدمتها والسبب في التمكن من العبادة والشكر وغيرهما ثم خلق الأرض التي هي
مكانهم ومستقرهم الذي لا بد لهم منه وهي بمنزلة عرصة المسكن ومتقلبه ومفترشه ثم
خلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطنبة على هذا القرار ثم ما سواه عز وجل
من شبه عقد النكاح بين المقلة والمظلة بإنزال الماء منها عليها والإخراج به من بطنها أشباه
النسل المنتج من الحيوان من ألوان الثمار رزقا لبني آدم ليكون ذلك لهم معتبرا ومتسلقا
إلى النظر الموصل إلى التوحيد والاعتراف ونعمة يتعرفونها فيقابلونها بلازم الشكر ويتفكرون
في خلق أنفسهم وخلق ما فوقهم وتحتهم وأن شيئا من هذه المخلوقات كلها لا يقدر على إيجاد
شيء منها فيتيقنوا عند ذلك أن لا بد لها من خالق ليس كمثلها حتى لا يجعلوا المخلوقات له
أندادا وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو ما هو عليه قادر والموصول مع صلته إما أن يكون
في محل النصب وصفا كالذي خلقكم أو على المدح والتعظيم وإما أن يكون رفعا على الابتداء وفيه
ما في النصب من المدح وقرأ يزيد الشامي بساطا وقرأ طلحة مهادا ومعنى جعلها فراشا وبساطا
ومهادا للناس أنهم يقعدون عليها وينامون ويتقلبون كما يتقلب أحدهم على فراشه وبساطه
ومهاده فإن قلت هل فيه دليل على أن الأرض مسطحة وليست بكرية قلت ليس فيه
إلا أن الناس يفترشونها كما يفعلون بالمفارش وسواء كانت على شكل السطح أو شكل الكرة
فالافتراش غير مستنكر ولا مدفوع لعظم حجمها واتساع جرمها وتباعد أطرافها وإذا كان
متسهلا في الجبل وهو وتد من أوتاد الأرض فهو في الأرض ذات الطول والعرض أسهل
والبناء مصدر سمي به المبني بيتا كان أو قبة أو خباء أو طرافا وأبنية العرب أخبيتهم ومنه
بنى على امرأته لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا خباء جديدا فإن قلت ما معنى إخراج الثمرات
بالماء وإنما خرجت بقدرته ومشيئته قلت المعنى أنه جعل الماء سببا لخروجها ومادة
لها كماء الفحل في خلق الولد وهو قادر على أن ينشئ الأجناس كلها بلا أسباب ولا مواد

Copyright © King Saud University